عبث الحياة

— ١ —

للقرن التاسع عشر في مصر أسرهُ العريقة في المجد ، الاصيلة في العظمة . غير ان هذا العصر لم يكد يشرف على الزوال حتى زالت معهُ تلك الاسر التي بسم لها الدهر وفرد لها هزار الامل البسام اكثر من ثمانية عقود متتالية من الزمان . تلك الظاهرة الاجتماعية تحتاج الى بحث وتحتاج فوق ذلك الى تعمق في النظر لاكتناه الاسباب التي قعدت بتلك الاسر بعد ان رتعت في بحبوحة الغنى وتقلبت في حجر النعمة ، ثم لم تلبث ان ضربها الدهر ضرباتهِ القاسية ، فسلح افرادها يجتاجر اعدها لمن يريدون التضحية بانفسهم على مذبحهِ العظيم ، فاغمدوها في قلوبهم حتى النصاب

***

حنفي بك سليل اسرتين من اعرق الاسر التركية المتحضرة التي نالت حظًّا من الغنى والجاه ، ذلك الغنى الذي ورثهُ رؤساء الجيش والحكومة في اوائل القرن التاسع عشر عن نظام القطائع الذي ظلَّ سائداً على البلاد طول عهد المماليك . وهو فتى طويل القامة حسن الطلعة جميل الوجه ، تعلم في المنزل ثم في المدارس العمومية ، فنال من العلم حظًّا ومن الادب نصيباً غير وافر ، ولكنهُ كاف لان يضعهُ في مصاف المثقفين

ورث عن اسرتيهِ اللتين ينتسب اليهما ارضاً واسعة في اقليمي الغربية والجيزة ، واملاكاً في كثير من نواحي القاهرة ، مسقط رأسهِ ومقر اسرتهِ الاول . غير انهُ شبَّ كما يشبُّ غيرهُ من ذوي الترف مضياعاً متلافاً ، لا يبقي على ما بين يديهِ الا ريثما يجد قدراً غيرهُ يبذلهُ رخيصاً في سوق الملاذ الموهومة والشرف المبتذل

وكان لهُ اب شيخ كبير قعدت بهِ السنون عن ان يجد وسيلة يصد بها ابنهُ عن الاندفاع في سبيل الشهوة العمياء ، وطالما احيى الليالي الطوال تائهًا في مهامهِ التفكير غائصاً في لجات من الافكار الحزينة . فكم تواردت على ذهنهِ ذكرى الوقائع التي صارع فيها الابطال ، والملاحم التي طارت فيها الارواح ، وبيعت فيها النفوس رخيصة في ميدان الجهاد الدنيوي ، وكم تخيَّل نفسهُ قائضة على حد سيف من تلك السيوف التي كانت تلمع من حولهِ في شمس بلاد العرب الصافية ، او تحت سماء بلاد الاغريق الشعرية ، فتمنى لو

ان حلمهُ وخيالهُ اصبح يقظة وحقيقة واقعة ، وكم تمنى لو انهُ مات في ميدان الجهاد والعز ، على ان يرى لهُ ولداً وحيداً دفعتهُ يد الاقدار الى تلك الهوة الاجتماعية العميقة التي لا فرار من التردي في حمأتها الاَّ بالموت الادبي او العوز الشديد والفقر المدقع . وكلاهما كبير على نفوس لم تعرف سوى العظمة ، ولم تحط الاَّ بابهة الملك والسلطان

قدر لذلك الشيخ ان يعيش بضع سنوات قضاها في حزن وألم ، ولما ادركتهُ الوفاة كان ولدهُ بين كؤوسهِ وقيانهِ ، فلما طيّر اليهِ الخبر ومثل بين يدي والدهِ المحتضر ، كان الموت قد بلغ من الشيخ مبلغاً اعياهُ عن النطق ، ولكن كان في عينيهِ بقية من شعاع الحياة ، فنظر الى ولدهِ نظرة تنم على كل احزان قلبهِ ، ثم اطبقهما ، فسالت منهما دمعتان هما آخر ما بذل ذلك الشيخ من جهد في الحياة

مضى الاب في ذلك السبيل الذي سيسلكهُ كل حي ، ومضى الولد في سبيل كثيراً ما سلكهُ من قبل العديدُ الاوفر من ابناء آدم ، سبيل الغواية والهوى ، سبيل الشهوة والانفعال

— ٢ —

— كيف تستطيع ان تعيش يابني في هذه الوحدة الاليمة ، وكيف لا تفكر في ان يكون لك زوجة يسكن اليها قلبك ، وتبث لها احزانك ، وتدبر من امرك ما انت عاجز عن تدبيرهِ

— مالي وللزوجة يا أماه . ومالي ولذلك السجن الابدي الذي التي بنفسي فيهِ مختاراً ، ومالي ولتكاليف الزوجة وسياستها ، وانتِ تعلمين ان نفسي قد فطرت طماحة للحرية المطلقة ، وثّابة الى الملاذ . واذا كان الزواج مجرد شهوة تقضى فالتنقل خير من العكوف ، واذا كان تدبيراً لامر انا عاجز عن تدبيرهِ ، فاني تارك لك تدبير ذلك الامر

— وهل انت ضمين ببقائي الى ما شاء الله ، وانا ام بلغت من العمر مبلغاً لا آمن معهُ غدرات الزمان بالكهول . وبعد كل هذا اتعتقد ان كل متزوج مسلوب الحرية ، احمق لانهُ القى بنفسهِ في سجن الزواج مختاراً ؟

— بالله عليك يا أماه لا تكثري على سمعي في هذا الكلام فاني امقت الزواج كل المقت ، بل كدت امقت كل الآباء لانهم ازواج

— سمعاً وطاعة يا بنيَّ . كفى عندي ان اراك بخير . كفى عندي ان اجدك فتياً قوياً ، وضّاح الجبين باسم الثغر . واي شيء اطلب من هذه الدنيا غير هذا . اي شيء غير

هذا تطلبهُ امّ لولدها الذي خرجت بهِ من كل ما في هذه الدنيا الواسعة من ملاذ الحياة — يورك فيك يا أُماه . فذلك ما ينتظر منك ولدك الوحيد في هذه الدنيا . مالي ولابناء آدم و بنات حواء . ألم تسمعي ما قال فيهم بشار الضرير

ابليس خير من ابيكم آدم فتنبهوا يا معشر الفجّار
ابليس من نار وآدم طينه والارض لا تسمو سموالنّار

وكرت على هذا الحديث السنون . فما زاد حنني بك الاّ تردياً في حمأة الشهوات . وما زادت امهُ الاّ ابعاداً في وحدتها واسترسالاً مع احزانها

***

اصبحت الام ذات يوم وأزمة الصدر تكاد تزهق روحها ، فاسرع اليها ولدها في خمارهِ ونشوتهِ ولكنهُ لم يكد يرى حال امهِ حتى افاق للدنيا الحافة بهِ ، وتواردت الى ذهنهِ الخواطر سراعاً متكاثرة . وتمثل لهُ شبح اليتم أمّاً وآباء فجزع وآلمهُ الحزن وتملكهُ الاسى ذلك انهُ لفرط ما انغمس في شهواتهِ كان قد فقد اكثر قوى العقل ، ولم يبق لهُ الاّ بقية من وجدان قذفت بالدمع الى عينيهِ ، ففاض هتوناً

راعهُ شبح اليتم لانهُ كان كالطفل الصغير يجزع لغير حقيقة ، او هو يجزع من حقيقة لا بد منها . ولم يكن قد قدّر للام ان تموت في تلك الساعة ، بل كانت اجلها مرهوناً الى وقت قريب . ولكن شاءت الاقدار ان تملكها ازمة الصدر وان يجزع ولدها ليتكون من مجموع ذلك ظرف تشقى بهِ احدى بنات حواء . فان الام لم تلبث ان تستفيق حتى نسيت ما كانت فيهِ و بدأت تفكر في امر ولدها الوحيد ، فحادثتهُ في حالها وفي مصيره من بعدها ، وكانت ثورة الشعور لا تزال مضطرمة في قلبه ، فاذعن لارادة امهِ ، وقبل ان تكون لهُ في الحياة شر بكة تحمل احزانهُ كاملة

وشاء القدر المحتوم ان تكون زوجتهُ من بنات العظماء فانت « هنيّة » بنت النعمة وربيبة الجاه ، انتقلت من بيت أبيها الى بيت زوجها ، فما رأت الاّ أمّاً مشرفة على الموت وما رأت الاّ زوجاً هدمتهُ السنون ، وحفرت الشهوات حتى قدميهِ هوة سحيقة من الموت الادبي ، فلاح كالكهل الفاني ، وان كان لا يزال في ريعان شبابهِ وميعة صباهُ . فاخذت حرارة قلبها التي بعثت في نفسها الآمال كبيرة ، تهبط شيئاً فشيئاً فانية في ثلج ذلك المشيب الذي حفت بها اسبابهُ . ولكن ما كادت عوامل اليأس تدب في هيكل الامل الذي ملأ صدرها ، حتى شعرت ذات يوم بشيء يختلج في احشائها ، فانتفضت مناجية نفسها :

« أي طفلي المعبود . ليعش الامل في صدري لكي اعيش من اجلك »

— ٣ —

هل حقًا انك لم تسمع شيئًا من كلام احسان يا تمراز ؟

— كلا يا سيدتي . فاني لم اسمع منهُ حرفًا . ولكن رأيتهُ يتحدر الى الخور في صمتهِ وسكونهِ المهيب . مصفر الوجه غائر العينين صامت اللسان

— هنيئًا لك أيها الشيخ . فقد عشت من غير ان يتسرب الى قلبك الحب الابوي يومًا . فيالسعادتك و يا لهنائك بوحدتك الحزينة الجميلة

وانهملت من عيني « هنية » الدموع فائضة مل شؤونها

***

الزمان في السابع من شهر آب عام ١٨٩١ ، وفي اقليم النيوم الجميل ، حيث تذهب اشجار النخيل برؤسها المهيبة في السماء ، وتنخفض خيران الارض اغوارًا عميقة . والسيدة « هنية » تخاطب الشيخ تمراز البستاني عن ولدها احسان الذي تمخضت عن حياتهِ الاقدار في شهر يناير سنة ١٨٦١ ، فهو الآن في فجر العقد الرابع من عمرهِ . صبوح الوجه مفتول السواعد شاحب اللون كبير العينين اقنى الانف ، يتهدل على رأسهِ شعر كأنهُ سبائك الذهب الصفراء قليل الكلام كثير الصمت ثابت الخلق ، سيد في كل شيء ، حتى في سكونهِ ونومهِ . فكان على صغر سنهِ كامل الرجولة قوي الشكيمة شديد المراس . ولكنهُ كان كثير الاحترام لابويهِ مفرط الخضوع لارادتهما ، حسن المعشر حلو الحديث في رصانة وتفكير عميق . محب للصدق والعمل ، مقسط في كل شيء حتى في تصوراتهِ وخطرات نفسهِ . وكان ابوهُ قد بلغ بعد ثلاثين عامًا ونيفًا من سيرتهِ الاولى مبلغ الكهول الذين هدمتهم الايام ، وانتقصت من حيويتهم حوادث الزمان

قامت هنية على تربية ولدها احسن قيام ، فتعلت ببذلهِ عنايتها بتكوين عقلهِ ، وبذلت في سبيل هذه الغاية اقصى الجهد . ذلك لأن الدين كان قد أقل موارد الاب اقلالاً اعوز الام الى الاقتصاد في كل شيء . ولم يبلغ احسان الثلاثين حتى كان قد اتم تعليمهُ وخرج من الدرس والمكوث على الحفظ والتحصيل الى عالم الحياة العامة ، عالم الجهاد والجلاد . ولم تكن نزعات نفسهِ لتريحهُ من التفكير في امر مستقبلهِ . فكثيرًا ما ناقش أباهُ ، وكثيرًا ما ناقشتهُ امه في ذلك . غير انهما لم يريا منهُ الاَّ اصرارًا على التسموح الى اعلى المناصب وأرقى الدرجات الاجتماعية . فتركاهُ لتصوراتهِ وموحيات

نفسه ، قائمين بان الايام سوف تكسر من حدة شبابه ، وسورة عقله الكبير

غير ان الايام لم تلبث على فرحها بولدها قليلاً حتى لاحظت ان فترات تأمله قد اخذت تطول شيئاً فشيئاً ، وان صمته اصبح اعمق وابلغ تعبيراً عن الالم الصارخ من اعماق نفسه ، وعن العاصفة النائمة في تيليه . فكتمت في ذلك اباه . ولم يكن الاب باحسن من الام حظاً في الفوز بشيء من سر احسان . ولما الحت عليه هذه الاحزان التي لم يجدا لها من باعث معروف نصح لها الاطباء بتبديل الهواء ، فلم يمانع احسان على انهُ اختار اقليم النيوم ، حيث يقوم قصر منيف تملكهُ امهُ هنية عن ابيها تحيط بهِ حدائق غناء ، وتنخفض من حولهِ خيران ذلك الاقليم الجميل بمياهها الجارية ، وانهارها الباسقة ومناظرها الطبيعية الفاتنة

— ٤ —

الليل مرخي السدول . والطبيعة صامتة ما ينطق لها لسان . والارض هامدة كأنها ميت فارقتهُ الحياة ، فلحق بين غير ممن طوتهم عصور التراب

وكان المقبل على ذلك القصر الذي يسكنهُ احسان يرى نوراً ضئيلاً ينبعث من حجرة في الطابق السفلي ، وقد تخلل الضوء ما بين الشرائح الخشبية القديمة ، فاذا اطل من بينها رأى شاباً في نحو العقد الرابع مستلقياً على معقد كبير من فوقهِ الآلة حور بس يظل احساناً بجناحيهِ السحر بين ليحفظهُ من سوء ما خبأت لهُ الايام

ولكم احيا ظلام الليل من امل وكم ولد من يأس . وانت ان فتشت في قلب احسان في تلك اللحظة لما وقعت على امل ولا على يأس . بل وجدت حيرة وشكاً يزكيهما الامل ويذهب بهما اليأس . فلم يكن الامل ولم يكن اليأس الا حالتين تتناوح من حولهِ الشكوك في قلب احسان فيحييهما . وكان كلما افتقمت رياح الامل من قلبهِ الشكوك هبَّ فتياً قوياً . وكم هبَّت عواصف اليأس على تصوراتهِ فارتد شكوكاً شقياً . وكانت ترتسم على وجههِ ابتسامة مريبة يعقبها قطوب مخيف . اما الابتسامة فكان باعثها الامل . واما القطوب فكان باعثهُ اليأس . فاذا تمخضت في جلستهِ تلك وفي توارد الصور على وجههِ الشاحب لما تخيلتهُ الا تمثالاً اخرجتهُ كف نقاش ماهر ليعبر لكل عين عن معنى من معاني الحياة ، يختلف اثرهُ في النفس باختلاف العين الناظرة الى مبعثهِ

ولم تكن تسمع في تلك الحجرة من حركة الهمٍ الا دقات ساعة ذلك الشاب ودقات قلبهِ . وكان ينعكس على وجههِ ضوء ضعيف منبعث من سراج فيهِ شموع على العادة القديمة

التي اتيمت في قصور العظماء حتى عهد قريب . وظل على حاله فترة لا يتحرك فيه من شيء حتى انتبه الى وقع اقدام تقترب من حجرته فتحرك ، ولما ان حقق مصدر الصوت غادر مجلسه الى باب الغرفة فاذا بالشيخ تمراز البستاني يمد اليه يده ببرزمة من الخطابات عليها اختام البريد

— هل ادركك احد ايها الشيخ وانت ذاهب الى القرية لتحضر البريد

— كلا يا سيدي . فاني اخذت اتسلل بين الاشجار كالثعلب اروغ من كل ما اشك فيه . وما زلت متمهلاً حتى بعدت عن المنزل ثم اطلقت ساقيّ للريح

— حسناً فعلت يا تمراز فخذ هذا الدينار جزاء امانتك وحسن خدمتك لسيدك الصغير

— انك لتغمرني بفضلك يا سيدي وستري من امانتي ما سوف تضاعف عليه مكافأتي

— بلا ريب . اذهب الآن

وعاد احسان الى طاولة من خشب الارو الجيد وجلس اليها يفحص البريد بعين غير مطمئنة مناجياً نفسهُ :

— ها قد مضى اسبوعان ولم تكتب إليّ دلال ، حرفاً واحداً . فماذا عسى ان يكون الباعث على ذلك ؟ العلها مريضة ؟ ام تكون قد نسيت عبدي ونفضت عن قلبها خاتم حبي ؟ ايمكن ان يكون لهذه الحياة قيمة بغير الحب ؟ واي سر من اسرار الوجود هو ادعى التأمل من هذا السر الخفي ، سر القلب المولع بحب فتاة من بنات حواء يكن بقربها خفقانه ، و ينضب مع بعدها ماؤهُ وتزول حياتهُ ؟ واية عاطفة من عواطف الحياة الانسانية هي اشرف من هذه العاطفة التي تفيض معها الحياة ملأى بصور الجمال والجلال ، وترتد بدونها حزينة جرداء ؟ كم اريد ان اشم تلك الزهرة الناضرة التي القاها الحظ في سبيل حياتي ، وكم اشعر بحاجتي الى سماع دقات قلبها تجاوب دقات قلبي

وأخذ يتلب في اوراق متناثرة على مكتبهِ فعثر بينها على ورقة اخذ يقرأ فيها خطرات كتبها منذ بضع سنين . واذا به يقرأ

— لا اقول في هذه الحياة قول ابي العلاء « هذا جناهُ ابي عليّ » بل اقول هذا حكم القضاء كان سرًّا حملهُ الابد حتى تمخض به زمني . وما انا بالمضغة اللينة يطحنها الزمن ويبتلعها الدهر بغوائله ونكباته ، بل الحصاة الصلبة تقاوم صدمات الاقدار . فلم أجزع ؟ اني قوام على نفس بالارادة والصبر الجميل . ولكن للصبر وحسن التدبير حدًّا ان بلغ اليه المرء فقد صبره وساء ما دبّر . على ان القول رداف والحزم عثراته تخاف . والعاقل من وازن بين حدي المنفعة والحاجة . وكلا الامرين يدعوني لان اشرك في حياتي نفساً اخرى

يكون لها من اياي شركة وفي حظي من الدنيا نصيب . واني لاقدم على امر ان خانني فيه الحظ فستكون آخر سهامه يوجهها الى صميم قلبي . وان بسم لي الزمان وعاضدتني الاحوال فعند ذلك اقوم في نفسي اول نهضة اضع عليها اساس ما أريد لنفسي من مجد . عند ذلك تنبت في غصون حياتي الجافة اوراق الامل فوّاحة وضاحة ويخضر روض وتبسم حياتي. اريد نفساً خلصت من اكدار الحياة غضة الاهاب كبيرة الآمال محصورة المطامح تجول في عينيها معاني الفطرة النقية ، كما تجول في اوراق الزهرة الناضرة قطرات الفجر الندية . أريد ان يكون قد قذف بها قلك القضاء والقدر الى عالم الموت والحياة ، وقد تنقلت في منازل العمر حتى حطمت العشرين ، فيلقيها الحظ في سبيل حياتي كقبس من النور الآلهي الفياض يضيء شعاعه اللامع نواحيَ من نفسي احسب أن مصائب الارض قد اهملتها حتى يتعذر ان تصل اليها مراحم السماء . تلك هي التي اود ان يكون لها في حياتي شركة ونصيب . على انني لم اجدها بعد ، ولعلي يوماً من الايام القاها »

ثم القى بالورقة من يده ومل نفسه اليأس متمماً — « لقد القى بها الحظ في سبيل حياتي فعثرت بها . ترى هل الاقدار تنتزعها من بين يدي تارة اخرى »

ثم صاح بملء نفسه — « ايتها الاقدار العاتية . صبي عليّ لعنة الابد ولا تبق لي على شيء الأ حبي فانهُ يفرج كربتي ويؤنس وحشتي »

واذا بالشيخ تمراز يركض عدواً مهماً نحو غرفة سيده الصغير

— ٥ —

عزيزي احسان

لئن تأخرت عنك رسائلي ، وانقطعت اخباري حيناً من الزمان ، فان قلبي لا يزال يلهج بذكرك ، ووجداني يفيض اليك شوقاً وحنواً . وكيف انساك يا من أصبح لقلب سلوة ولمصائب الحياة عضداً ، ولملات الدهر سنداً . أني استطاعة القلب البشري أن يسلو حبيباً احبهُ لا لشيء الأ لانهُ احبهُ ؟ وهل في الحياة الانسانية باجمعها قلب فتاة انطوى على الطهر احب ثم سلا ؟

ما انقطعت عنك اخباري الأ لان القدر قطع منذ ايام عمادي ومضى ينادي ، الى حيث يمضي كل حي . مضى بأبي في ذلك السبيل الذي سوف نقطعها حتى اذا ما بلغنا المنتهى حمدنا السرى وقررنا بسفر الحياة حيناً

اصبحت في الحياة فريدة لولاك . فبين يديك الطاهرتين التي بكل ما لي في هذه

الحياة . ومالي فيها سوى شرفي وعرضي وصفاتي . وهذه اشياء عجز فتوالي في اواخر ايامي ان ينال منها منالاً او ان يقرع لها بابا . ولقد احتفظت بها امانة في عنقي حتى القيها في عنقك ، فالى امانتك اعهد بها ، وانت كرم اخلاقك وطيب عنصرك وسمو عواطفك كفيلة بان تحفظ لي في هذه الحياة تراثي الادبي وميراثي الانساني

وما استطيع ان ازيد على ما كتبت حرفاً ، فان قلمي عاجز عن ان يعبر لك عما يختلج بقلبي من الانفعالات الثائرة ، او عما يساور ذهني من التصورات التي امتزج فيها الحزن على الماضي ، بالامل في المستقبل » « دلال »

وكرت على هذه الحوادث سنوات سبع ما زاد فيها حب احسان ودلال الاّ تمكناً ، فكان حباً صفى من اكدار الغرض والمنافع ، وعلاقة بين القلوب هي اشبه الاشياء بالجاذبية التي تحفظ نظام الاجرام بنسبة غير زائدة ولا منقوصة ، او هي كالفة العناصر التي تجذب كل عنصر الى ما يألف على قاعدة لا يناطاخلل ولا ارتباك

— ٦ —

في اليوم السابع والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٨٩٨ كانت دلال جالسة على شرفة تطل على حديقة امام منزلها الصغير تطيل النظر الى زهرة من النرجس الوت برأسها الى غدير يجري فيه الماء من نافورة في وسط الحديقة . وكانت مستغرقة في احلامها اللذيذة مناجية نفسها باسطورة الصدى ونرجس مترنمة :

ايها الفتى « نرجس » الذي مسخته الآلهة في معتقد الاغريق زهرة تعجب بها ، كيف صددت عن حب « الصدى » حتى بلى لحمها وفرى عظمها ؟ ولماذا لم تقابل الحب المحرق بحب مثله ؟ وما هو السر الذي يؤلف بين بعض القلوب وينفر بين البعض الآخر ؟ هل لهذه الحياة التي نحياها الآن سر غير سرها المفضوح امامنا ؟ ام ان الطبيعة لم تجد علينا الاّ بقدر ما تسع عقولنا واحلامنا ، في حين انها جادت عليك بسرها ثم قلبتك زهرة ليبقى سرها في اعماق جمالك مصوناً مكنوناً ؟

« ايها الفتى » نرجس القابل الجميل . كنت في حياتك الاولى شاباً فاتن الجمال ، وانت سليل آلهين من آلهة الماء ، فسما باصلك الى النجم فرع طويل صدك عن ان تحب « الصدى » وان تمنحها من عواطفك ما منحتك من عواطفها ، فهل يمكن ايها الفتى الجميل ان تكون مراتب الشرف ومنازل الجاه حائلة بين القلوب والحب ؟ لقد اخطأت ايها الفتى ان كنت صددت عن « الصدّى » لمجرد انك سليل آلهين من آلهة الماء البعيد الاغوار

الجم الاسرار . والاَّ فماذا سخك الاله « زوس » زهرة ما ترى الاَّ على حواف الغدران كما كنت في حياتك تطيل الوقوف على حافة الماء الراكد لتنظر الى جمالك الفتان في صفحته الصافية

اما انت ايتها الفتاة الحزينة التي لم يبق منها شيء الاَّ القدرة على ترديد ما تسمع او يقال ، فاذا قلت إحسان !!!

ولم تكد « الصَّدى » ترددُ نداء دلال حتى فتح الباب وظهر لديه إحسان كأنَّ « الصَّدى » جذبهُ بقوتها السحرية فلم ترد اسمهُ ، بل حملتهُ الى احضان دلال ذاتاً كاملة الهيكل والجثمان

ظهر احسان لدى الباب ، ولكنهُ وقف واجماً جامداً . غير انهُ على الرغم من احتفاظهِ بكل ما كان فيهِ من صفات الرجولة فان اصفرار وجههِ كان مريباً مخيفاً . فتقدمت اليهِ دلال في سكون ورهبة ولم تفه بكلمة بل القت بنفسها بين احضانهِ فاتحة الدمع جمة الشجون

« لقد مات أبي فجأة بعد ان جرَّد من املاكهِ منذ ساعة . ولحق بمن مضى من اوائلنا . لحق بأبيك وبأمي . ولم يبق لي في الحياة سواك فتأهبي للسفر لان الحياة هنا غير محمولة في الفقر بعد العزة والعوز بعد الجاه »

ثم تركها حائرة وعاد ادراجه ليواري جثة ابيهِ التراب

وفي اليوم الثاني كان احسان ودلال زوجين تحملهما اجنحة البخار الى سورية حيث صمما على ان يقيما الى آخر حياتهما عاملين بكد سواعدهما ليعيشا

— ٧ —

عند مدخل الغابة الملتفة الاغصان كوخ صغير من حولهِ حقل وحديقة ، وبالباب طفل يمرح فرحاً غرداً كأنهُ المزار في الربيع . وكان كل ما بالكوخ ساكناً مطمئناً ، كأن اطمئنان القلوب التي تسكنهُ تبعث في جوهِ السعادة والهناء . وفي هذا السكوت الشامل انبعث صوت شجي في نبراته حنو وجمال قائلاً :

— ليس لدينا وقود وقد كاد الليل ان يرخي على الطبيعة سدوله

— حسناً يا معبودي . جهزي لي الحبل والفأس

وحمل احسان الحبل بيدهِ والفأس على كتفهِ ، ومضى نحو الغابة متغلغلاً في الظلام